بشائر الأفراح
الكاتب : صفية الودغيري
التاريخ : 14 فبراير 2015 م
المشاهدات : 4827

إن السَّعادة لا تأتيكَ عُنوَة ولا اسْتِجْداءً ..

إنَّما هي مَنبعٌ ثَرٌّ بالعَطاء، وأريجٌ فوَّاحٌ ينثُرُ شَذاهُ في الآفاق، وإشراقَةٌ توقِدُ فتيلَ الرُّوح وتصهَرُ أشواقَ الأحلام، وتُعيد للذَّاكِرة رفيفَ الخاطِرة فتتفتَّقُ كقطراتٍ نديَّة من مُهْجَةِ الحياة، ترطِّب ندوبَ الجِراح فتلتَئِم بلا مشقَّةٍ ولا عَناء ..

إنَّه الإيمان حين تَنْتشيهِ قلوبُ الأَصفِياء فيُزَيِّن جبينَها بغُرَّةِ النَّصر، ويُقلِّد جيدَها المَعالي فتتَحلَّى بالاعْتِزازِ والفَخر، وتَرْتقي به مراتِبَ المَجدِ التَّليد ومهدَ الأتقياء مَزِيَّةً وتنالُ به سَجيَّةَ أهل الكرامَةِ والعزم، من عاشوا في الدُّنيا بزادٍ قليل وهُم في سعَةٍ ورَخاء، وماتوا وهم الأغنياءُ السُّعَداء، وما أجمل ما قاله الإمام الشافعي في مدح هؤلاء ممَّن زهِدوا في الدُّنيا وصانوا دينَهُم من التخَبُّطِ في لُجَّة الفِتن:

إنَّ للَّهِ عِبَـاداً فُطَـنَـا *** تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُـوا الفِتَنَا
نظروا فيها فلما علموا *** أنهـا ليسـت لحـيٍّ وطـنا
جعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذوا*** صالحَ الأعمالِ فيها سفنا

والسعادة.. لا تسكنُ قلوبًا جَوْفاء:

قد تعلَّقت بالآمالِ العريضَة فتخلَّت عن مُقوِّماتِ الإيمانِ والفَضيلة، وساقَها الجحودُ والطُّغيان إلى الانْحِراف عن سُبُلِ الخيرِ والهِداية، وجذَبَتْها أهواءُ الشَّهَواتِ والمَلذَّات فشردَت في مَراتعِ الكُفرِ والضَّلالَة، وخامرَها المَيْلُ إلى الدَّعَةِ والرَّاحَة فأَفْسدَ

سُلوكَها، وغَلَّ جَوارِحَها بأَغْلالِ الانْسِحاق والانْدِحار فشَلَّ تفكيرَها عن معرفَةِ الحَق، كأنَّ على أبصارِها غشاوة كتلك التي ختمَ الله بها على قلوبِ الذين كفروا، كما قال تعالى في سورة البقرة: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ)

قد ابتلاها الله تعالى بالحِرْمانِ من نعمَةِ الغِبْطَة وكرامَةِ أهلِ السَّعادة، وأَرْسَلَ على قلوبِها سِجافَ الحزنِ الكَثيف، فصارَت أَشْبَهَ بمُعْتكَفٍ ضَجَّ من البُكاءِ على الأَطْلال مَشْحونةً بالضَّجَر، لا تملُّ من تَجرُّع غُصَصِ المَرارةِ عن كَثَب، وضاقَتْ عليها الدُّنيا فلم تسَعْها برحابَتِها وانْبِساطِها، كما ضاقَتْ أَرْواحُها بأَنْفاسِها العَليلَة فلفظَتْها خارجَ شِرْيانِها الأَعْزَل كدُخَّانِ حطَبٍ يابِس، وصدقَ الحقُّ سبحانه حين قال في سورة طه: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا)

والسَّعادة.. في لذَّةِ الإيمان:

يشرق نورُها الوهَّاج في قلوبٍ تعلَّقَت بالله فاطمأنَّت إلى رُكْنِه الذي لا يَنْهَد، وسكنَت نبضاتُها إلى وِسادِ الرَّاحةِ الرَّحيب كطِفلٍ مُتعَب توسَّدَ راحةَ المَهْد، تَرِفُّ بشكْواها فيهُزُّها الحَنينُ إلى وُلوجِ روضِ السَّعد، وتَرْتَوي من سِقائِه الطيّبِ العَذب، وتستظِلُّ بظلّ نخلِه وتلْتَقِطُ ما تُثْمِرُه الرُّطَب من العِذْق، وتتَشي من لذَّةِ العبادة والذِّكر قُطارَةَ الشَّهْد، في لقاءٍ فريد له أَسْرارٌ لا يَسْبُرُ أَغْوارَها إلاَّ العارِفون بما تحتويهِ خزائِنُ الله من يواقيتِ الدُّرَر، ولا يَجْتلي أَنْوارَها السَّاطِعَة إلاَّ ذَووا البصائِرِ الصَّاحِيَة، والضَّمائِر الخالِصَة، والألْسُنِ الذَّاكِرَة، والجَوارِحِ الطَّاهِرَة، من رُزِقوا التَّنَعُّمَ بالطُّمَأنينَة وَجَمَعوا الشَّمْلَ بأسبابِ الفَرحِ الوارِف، لمَّا تطَهَّروا من الذُّنوب وتحلَّوا من المعاصي، وزَهَدوا في متاعِ الدنيا ورَغِبوا عن ملذَّاتِها بالكَفاف والرِّضا بالنَّصيبِ المُقَدَّر، فحيزَت لهم الدُّنيا بأَسْرِها، وما أجمل ما قاله في هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)..

والسعادة تسكن قلوبًا فرَّت من لُجَّةِ الأَدْناسِ وصدَّت عن شَقْوَةِ الفِتَن، فعاد إليها الصَّفْوُ يصدَحُ بخفَقانِ الحُبّ، ينفضُ عن رفوفِ ذِكْرَياتِها دُخَّانَ الوَجَع، ويخْمِدُ في صَدْرِها المُلْتاع الكمَد والقهر، فيهتِفُ رُكْنُها الخامِل يستَجْدي وصْلاً بالمعاني التي تحرِّك رفيفَ الرُّوح، وتبعثُ في خلجاتِها أكرمَ ذِكْرى وأَشْرفَ عَهْد، وأَنْبلَ مَأْرَب، وأَسْمى قَصْد، فيلْتحِفُ صوتُها الشَّاكي قليلاً من الصَّمت والسُّكون، لترسِلَ المسرَّاتُ بسماتِها مجَلْجِلةً في الزَّمنِ الرَّغْد..

والسَّعادة.. في الجدِّ والنَّشاط:

تتمَثَّلُها الحَواس في هذا الوجودِ الفَسيح فتقبلُ على الدُّنيا إقبالَ المُجدِّين، لا يصرْفُها اللَّهو ولا اللَّغو، ولا فُضولُ الكلام عن الإنتاجِ والتَّحصيل، تصونُ مكارمَ الأخلاقِ عمَا يُزْريها ويشينُها، وتَنْأى بنفسِها عن مجالسةِ من اتَّقدَت قلوبهُم بالدَّخَن والدَّغَل، وتصُدُّ عمَّن خالطَ عُقولَهُم السَّفَه والدَّجَل، وتحفَظُ كرامَةَ أهلِ المجدِ والشَّرف، وتصونُ هيبَةَ أهل الوقارِ وسلطانِ أهلِ العِلم، وتحُثُّ الخُطى ساعِيَةً في الأرضِ بكَدٍّ ونشاط على شِرعَةِ أهل الرَّشادِ والصَّلاح، خالِيَةَ الذِّهنِ من كلِّ وجَلٍ أو عَطَل، تحصُدُ سنابلَ الزَّرع، وتلْتقِطُ الحَبَّ والثَّمر، وتصنَعُ بيدَيْها الرَّغيفَ والخُبْز، قانِعَةً بلُقَيْماتٍ تُقيمُ صُلْبَها، وتشُدُّ عودَها، وتقوّي ساعِدَها، ولا يهْنَأُ لها عيشٌ حتى يَرْبو النَّباتُ ويخْضَر، وتتَّسِعَ الرِّياضُ وتُزْهِر، وتَمْتَلِئَ السَّواقي، والجَداول، وتفيض الأنهارُ بالماءِ العَذْب، لا يشغَلُها عن بلوغِ غاياتِها النبيلة طَمَعٌ زائِل ولا ترفٌ زائِد، ولا يَصْرِفُها عنها التَّعَب فيما لا يُغْني وإن كَثُر، ولا يُحْزِنُها التَّأَسُّف على فَوْتِ مَا لَمْ يُقَدَّرْ، وتتوقُ هِمَّتُها إلى ما يقرِّبها من الله ويُغْنيها عمَّا سواه،، فتأتيها الدنيا راغِمةً مستبشِرة،

مصداقا لإرشاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم: (مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ)..

فما أسعد تلك القلوب التي وجدَت ظِلَّها الوارِف ورُكْنَها الآمِن، يذكِّرُها بما هو أعظم من كلِّ شيء، ويلهِمُها الخُشوع وتدبُّر آيِ الله في ذاك الوجود الرَّحب، يحْجُبُ عن عينِها النَّظَر إلى الحياة ويكشِف لها النَّظر للآخرة، فتلتذُّ بنشوة الغبطة..

المسلم

المصادر: